

الصفوف قديمياً وحديثاً

كلمة صوفي

أعربيتها هي أم يونانية ؟

قدمنا في جزء يوليو القول على هذه الكلمة ، وقررنا بأن ثمة خلافات عدة ، وأوجها تسعة في اشتقاقها . وقد بحثنا الوجهين الأول والثاني منها فانتهي بنا البحث الى تخطيطيها لفظة . وها نحن نأخذ في تبيان الأوجه الأخرى مبتدئين بالوجه الثالث

— ٣ —

أما القول الثالث فيرى أصحابه أن الكلمة مشتقة من (الصف) حيث يعملونه بقولهم (إنهم في الصف الأول بين يدي الله عز وجل بارتفاع شمسهم وإقبالهم على الله تعالى بقلوبهم ووقوفهم بسرائرهم بين يديه) والناقل لهذا هو الأستاذ السهروردي ، في كتابه «عوارف المعارف»

وأود قبل مناقشة هذا الرأي، وقبل التدليل على خطأه، أن أبريء الأستاذ السهروردي من تهمة الأخذ به ، وأقول تهمة فلا يدهشن القاريء من ذلك اللفظ ، فإن المعنى بقدر ماله من جلال وروعة ، لا يتفق والحق إن شرعاً وإن لغة في شيء . وما دام الأمر كذلك وهو ما سنوضحه بعد فإنه يصح خطأ مردوداً

قررنا أن هذا خطأ من ناحيتين : دينية ولغوية . وما كنت لأتكلم هنا عن الناحية الدينية ، فلهذه مكانها من البحث . لكننا مضطرون إلى الألماع بالأماعة يسيرة نزيل بها الشك من تلك الناحية أيضاً ، ولتكن إثر الناحية اللغوية

أما خطأ النسبة لفظة فظاهر البطالان لا يحتاج في تقضه إلى دليل ، إذ اشتقاق الصفة من الصف «صفي» لا «صوفي» ويجوز أن تقول «صاف» وهذا الأخير نادر والنادر كما هو معروف لا حكم له ، ولم يذكره إلا أبو عبيدة وحجته في ذلك احتمالية أقامها من

قوله تعالى « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً » قال أبو عبيدة يحتمل أن يكون مصدراً أو أن يكون بمعنى الصافين « أضف إلى هذا أن المعروف عند علماء التفسير هو أن الصاف المملك . قال تعالى « والصافات صفاً » أى الملائكة المصطفون في السماء بسبحون لهم مراتب يقومون عليها صفوفًا كما يصطف المصلون وفي التنزيل « اذكروا اسم الله عليها صواف » أى مصفوفة .

نحكم إذن ببطلان هذا الرأي بعد الذى قدمنا ، وكذا حكم ببطلانه وإهماله كثيرون على رأسهم الشيخ السهروردى ، وننكره كما أنكره العلامة ابن تيمية والحافظ ابن الجوزى وغيرهما

بقيت الناحية الدينية ونحن نقرر خطأ ذلك رأى من تلك الناحية أيضاً . وهذا راجع إلى ما يلاحظ من معناه ، وهو تفضيل الصوفية على غيرهم من بقية البشر ، وذلك بجعلهم فى الصف الأول بين يدى الله . وهذا كلام لا تقوم عليه حجة شرعية ولا يؤيده دليل عقلى . فإن الاسلام ، بل وكل الأديان ، لا تفضل إنساناً على آخر بنير العمل الصالح ، وليس بذله أو فقره ، ولا بماله أو جاده . ولا أدل على صحة ما تقول من قول الله تعالى فى كتابه الكريم « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ويقول النبي صلى الله عليه وسلم « لا فضل لأبيض على أسود ولا لعربى على أعجمى إلا بالتقوى أو عمل صالح » وكان رسول الله يقول لابنته وسيدة النساء السيدة فاطمة الزهراء « يا فاطمة يا بنت محمد ! اعلمى لا أغنى عنك من الله شيئاً » وقد شفع نوح عليه السلام لابنه فلم يجبه الله إلى شفاعته لأن ابنه كان غير صالح وفى هذا يقول الله تعالى فى محكم آيه « ونادى نوح ربه فقال رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين ، قال يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح » بهذه التعاليم العالية وتلك الأسس القيمة كنجد الاسلام وكانت عظمتها ، فإن هذه القاعدة الجليلة وأعنى بها قاعدة المساواة هى من أعظم الأصول وأمتن الأسس وأقوى الدعامات التى قام عليها الاسلام ، والتى جاء بها ليدور السلطنة الروحية التى كان يدعيها ذوو الأباطيل والترهات والتى كن يشهرها رجال الدين فى وجوه مخالفاتهم فى رأى أو المعتقد ، والتى طالما ساموا الشعوب الخسف بها ، وأبسوهم بواسطتها لباس الذلة والمسكنة

بهذه القاعدة الجميلة بطل ما كان للرؤساء والروحانيين من مزاعم في احتكار السلطة الروحية وتوريثها لذويهم بغير حق ولا صلاح . فصار ميزان التمايز الأعمال الصالحة لا المراتم الشكلية من صفوف أو غير ذلك من أشكال وألوان . ولقد جاء خلفاء الاسلام مؤيدين لهذه القاعدة ، فكان أول خليفة العباسيين يخطب الناس ويقول « يا أيها الناس قد وليتكم ولست بخيركم ولقد وددت أن واحداً منكم قد كفاني هذا الأمر فلو وجدتكم في اعوجاجا فقوموه »

نعرف من كل ما تقدم أن ادعاء من يدعى نسبة الصوفي الى الصف يجعله في الصف الأول بين يدى الله عز وجل — إدعاء باطل شرع . ولا يفوتنا أن نقول بأن هذه الصفوف أمر متمم لإقامة الصلاة عملاً بالحديث الذى يقول « سوا صفوفكم فإن تسوية الصفوف من إقامة الصلاة » ولا يفوتنا أيضاً أن نقرر بأن معرفة درجة الصوفي من الصفوف الأخرى أمر لا يعاينه غير الله وحده . وكل الذى نعرفه والذى عليه من قبلنا هو أنه لو صح التفضيل لكان لأبى بكر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم لعمر كما تواتر ذلك عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، ثم لبقية الصحابة والتابعين وأهل الشورى وغيرهم . ولقد قال الله تعالى فى كتابه الكريم « لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى » وقال أيضاً « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين اتبعوهم بأحسان »

فأين كان الصوفية وقت فتح مكة وهو ما نزلت الآية لسببه أو زمن المهاجرين والأنصار ولم يعرفوا أو تعرف فرقتهم إلا فى القرن الثالث ؟ الحق أنا كلفنا أنفسنا كثيراً فى الرد على هذا الزعم الباطل ولكننا نعمل مانعمل فى سبيل نفي ذلك الشين عن الاسلام ، على أنه لا يفوتنا أن نخطب أولئك الذين يزعمون لأنفسهم صفا بقول إمام من أئمتهم وأعنى به شجى الدين بن عربى حيث يقول فى هدم مثل ذلك الزعم :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
وقد صار قلبي قابلاً كل صورة فرعى لنزلاً ودير لرهبان
وبيت لا وثن وكعبة طائف وألواح تورا ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني

أما القول الرابع وهو القائل بنسبتها إلى الصوفانة وهي بقلة زغباء قصيرة - فيعلموه بقولهم «إنهم نسبوا إليها لاجترأهم بنبات الصحراء» ويقول الأصفهاني في مفرداته «قيل إنه - أي الصوفي - منسوب إلى الصوفان الذي هونبت لاقتصادهم واقتصارهم في الطعم على ما يجري مجرى الصوفان في قلة الغناء في الغذاء»

وهذا خطأ من ناحيتين أيضاً : ناحية دينية وأخرى لغوية . فأما تلك الناحية الدينية التي يؤاخذون عليها فهي اقتصارهم على ما يجري مجرى هذا النبات في الطعام ، فإن في هذا مخالفة لقوله تعالى في محكم آيه « يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا الله إن كنتم إياه تعبدون » وفي قوله تعالى « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » ثم يقول بعد ذلك « قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والأثم والبنغي بغير حق » ويقول أيضاً « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض » وقال رسول الله « لأن يترك أحدكم أولاده أغنياء خير من أن يتركهم فقراء يتكففون »

كل ذلك شاهد على أن الاسلام دين جد وعمل ، لا خول وكسل ، وعلى أن الاسلام لم يمنعنا التمتع بملذات الحياة المشروعة أو الاستفادة منها وبكل مافي كائنات الله تعالى من بدائع وخيرات ، وأرزاق وثمرات . إن ديننا هذا شأنه محال أن يراضى أولئك الذين ينخرون في عظامه نحر السوس في الجسد بتلك الأسرائيليات أو هاتيك الزهديات المبالغ فيها كل المبالغة . وليس الزهد زهداً إلا فيما يملك الانسان لا فيما يحرم منه . فان الاسلام لم يجرمنا نصيينا من الدنيا بل إننا لنعرف ما جال في نفس النبي صلى الله عليه وسلم وقول الله تعالى على لسان نبيه « ربنا آتتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة » فمثل هذا الزهد المبالغ فيه لم يأت به الا سلام مطلقاً ولم يأمر به الا في حدود لا إلى الافراط ولا إلى التفریط وذلك ليعدمعتنيقه للفوز في هذه الحياة كما أعدهم للفوز في حياة الأبد وسيكون لنا في هذا الزهد كلام كثير ليس هذا مجاله الآن

يقيت الناحية اللغوية وهذه خطأ أيضاً والا فلو أن النسبة صحيحة لقل « صوفاني » لا « صوفي » . وقد أنكر هذا الرأي كثيرون في مقدمتهم العلامة الحافظ ابن الجوزي

أضف الى ما تقدم أن هذا الرأي لا وزن له ولا اعتبار لعدم قيمته ووجهته فلننتقل الى القول الخامس

٥

أما القول الخامس وهو القائل باشتقاقها من « صوفة القفا » وهي الشعرات النابتة في مؤخرة الرأس ، فيعلمونه بقولهم « إن الصوفي عطف به الى الحق وصرف عن الخلق » وقد أورد هذا الرأي الحافظ ابن الجوزي في كتابه « نقد العلم والعلما » . وهذا الوجه خطأ أيضاً لانعدام القياس الفعلي المعروف

— ٦ —

أما القول السادس وهو القائل بنسبتها الى صوفة بن مر بن إد بن طابخة فقد أوردته صاحب كتاب « جلاء العينين في محاسبة الأحمدين » وصاحب « مجموعة الرسائل والمسائل » وقيل سمي صوفه لأن أمه ما كان يعيش لها ولد فنذرت لأن عاش لتعلقن في رأسه صوفة ولتجعلنه ريبط الكعبة يخدمها . وكان الحج وإجازة الناس من عرفة الى منا ومن منا الى مكة لصوفة ، ولم تزل الاجازة الى عقبه حتى أخذتها عدوان ، فلم تزل في عدوان حتى أخذتها قريش . والى بنى صوفة ينسب النساك ، وذلك لأنهم أول من انقرد بخدمة الله تعالى عند بيته الحرام . وثمة روايات مختلفة عديدة عن تاريخ آل صوفة أو آل صوفان أو آل صفوان على حد قول صاحب الأساس ، ضربنا صفحاً عنها لضيق المجال . ويقول صاحب الأساس « لعل الصوفية نسبوا اليهم تشبهاً بهم في النسك والتعبد » وسواء لدينا أصحت هذه الروايات التي ذكرناها أم لم تصح ، فإن النسبة الى قوم في الجاهلية لا وجود لهم في الإسلام خطأ محض ، وذلك لأن النسبة الى الاسلام كانت في زمن النبي صلى الله عليه وسلم بلفظي مسلم أو مؤمن ، ولا يختلف اثنان في أفضلية هذه على سابقها . ولقد أفتى الإمام ابن تيمية بتكفير من يقول بنسبتها الى بنى صوفة والفتوى بنصها وفصها موجودة في « مجموعة الرسائل والمسائل ص ٢٢١ طبع المنار » فارجع اليها إن شئت .

— ٧ —

أما القول السابع وهو القائل بنسبتها الى أهل الصفة فذلك لأنها على حد قول بعضهم اسم من أسماء النسب ، كالقرش والمدني وغير ذلك ، ونحن نحكم بخطأ هذا القول

لأنه لا يوافق قاعدة النسب والاقبال « صغية » لا « صوفية » وقد ذكر هذا الرأي ابن خلدون في مقدمته وابن تيمية في كتابه « المفاضلة بين الصوفية والفقراء ». وأما أهل الصفة فكانوا من فقراء المهاجرين يتصفون بصفات صوفية بن مر بن إدا بن طابخة المتقدم الذكر وقد كانوا يقدون على رسول الله « ص » وليس لهم أهل ولا مال فبنيت لهم صفة في مؤخر مسجد النبي بالمدينة ليأوى إليها من ليس لهم مكان ، ولم يجتمعوا في وقت واحد إذ تارة يكونون عشرة أو أقل وتارة عشرين أو ثلاثين وأخرى ستين أو سبعين ، وجلتهم لم ترد على الأربعائة ، فعدوا بالمسجد لضرورة وأكلوا من الصدقة لضرورة فلما انتشر الإسلام في الأرض وفتح المسلمون الأمصار استغنوا عن تلك الحال وخرجوا وفي رواية أخرى بل طردهم سيدنا عمر بن الخطاب قائلاً لهم « لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول اللهم ارزقني وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ، وإنما الله يرزق الناس بعضهم من بعض » مستشهداً بقوله تعالى « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون »

— ٨ —

أما القول الثامن وهو القائل باشتقاقها من الصوف فأن أغلب المتصوفة يعتمدون عليه ويتحسسون له تحساشاً شديداً ، ويعلمونه بقول أحمد شايجهم « الصوفي كالخرقة الملقاة والصوفة المرمية التي لا تدبير لها » ويدعون فوق ذلك أنهم يختصون بلبسه لما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب إلى الصوف وهذا ما قاله ابن خلدون في مقدمته . على أن هذا الرأي خطأ أيضاً ، وذلك لثلاثة أمور (أولاً) لأنهم يقيمون الكلمة على غير قياس فعلى معروف ، حتى أن صاحب التاج ذهب إلى القول بأنها صائفة (ثانياً) أنهم لم يختصوا بلبس الصوف بل تقدمهم في لبسه اتباع موسى وعيسى عليهما السلام . وذلك من قبل أن يأتي الإسلام ، وفي هذا تشبه بغير نبي الأمة ومن تشبه بقوم فهو منهم (ثالثاً) . لأنه مخالف لما جاء عن النبي (ص) والعبادة والتابعين ، إذ أن الصوف لم يكن لباس السلف من الأمة لأنه يتضمن ادعاء الفقر ، وقد أمرنا الله بستره ، ولأن فيه إشهاراً للزهد وقد أمرنا الله بأن نظهر نعمته علينا

« روى أبو الشيخ الأصفهاني بأسناده عن محمد بن سيرين أنه قال إن قوما يفضلون لباس

الصوف فقال إن قوماً يتخفون الصوف يقولون أنهم يتشبهون بالمسيح بن مريم وهدى نبينا أحب إلينا . وقال محمد بن محمد بن علي الكتاني لأصحاب المرقعات الذين يلبسون خرقة الصوف « إخواني إن كان لباسكم موافقاً لسرايركم ، لقد أحببتكم أن يبلغ الناس إليها ، وإن كانت مخالفة لسرايركم فقد هلكتم ورب الكعبة » وقال أبو عبيده محمد بن عبد الخالق الدينوري لبعض أصحابه « لا يعجبنيك ما ترى من هذه اللبسة الناهرة عليهم فما زينوا الظاهر إلا بعد أن خربوا الباطن » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من لبس ثوب شهرة أعرض الله عنه حتى يضع » وفي حديث آخر « لبسوا الثياب البيض فأنها أطيّب وأطهر وكفّنوا فيها موتاكم » وعن أبي هريرة وزيد بن ثابت رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم عن الشهرين فقيّل يارسول الله وما الشهرتان ؟ فقال رقة الثياب وثلاظتها ، ولينها وخشونتها ، وطولها وقصرها ، ولكن سداد بين ذلك واقتصاد ، وعن أنس عن رسول الله (ص) أنه قال « من لبس الصوف ليعرفه الناس كان حقاً على الله عز وجل أن يكسوه ثوباً من جرب حتى تتساقط عروقه »

والأحاديث كثيرة جداً في هذا الباب ومن شاء فليرجع إليها في كتاب « المناوي » أو أسباب ورود الحديث « أو تلبس إبليس لابن الجوزي » . وأرى قبل اختتام هذا الرأي أن أروح عن نفس القارئ ، بالرواية الآتية فقد قال النضر بن شميل لبعض الصوفية « أتبيع جبة الصوف ؟ فقال إذا باع الصياد شبكته فبأي شيء يصطاد ؟ »

— ٩ —

أما القول التاسع وهو القائل بأنها أخذت من كلمة « سوف » اليونانية فلم أر من ذكره مطلقاً غير الفيلسوف العربي أبي الريحان محمد بن أحمد المعروف بالبيروني المتوفى في عشر الثلاثين والأربعين في كتابه « تحقيق مالا الهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة » طبع ليدن سنة ١٨٨٧ م في باب (أصحاب الكرامات) حيث قال « إن قدماء اليونانيين قبل ظهور الحكمة فيهم بالسبعة المسمين أساطين الحكمة وتهذيب الفلسفة عندهم ، كانوا على مثل مقالة الهند وكان فيهم من يرى أن الأشياء كلها شيء واحد « وحدة الوجود » ثم من قائل في ذلك بالكُمون ، ومن قائل بالقوة وأن الإنسان مثلاً لم ينفصل عن الحجر والجماد إلا بالقرب من العلة الأولى فقط لاستغنائها فيه وحاجة غيرها إليها . وإن ما هو مفقود في الوجود إلى غيره

فوجوده كالتخيال غير حق والحق هو الواحد الأول فقط . وكانت هذه الآراء آراء السوفية أى الحكماء فأن سوف باليونانية معناها الحكمة . وبها سعى الفيلسوف أى محب الحكمة . ولما ذهب قوم فى الإسلام الى قريب من رأيهم سموا بأنفسهم . ولم يعرف اللقب بعضهم فليسبهم بالمتوكل الى الصفة وأنهم أصحابها . الخ "

هذا مقال العلامة البيرونى . وهو الصحيح من بين الأقوال جميعا واعتقد أن واحدا ممن تقدم ذكرهم لم يوفق الى أصل الكلمة توفيق أبى الريحان . وثابت أن الكلمة مشتقة من كلمتين يونانيتين تكلمنا عنهما فى الجزء الأول من هذه المجلة .

على أنه يمكنك مراجعة شرح هاتين الكلمتين فى مقدمة ابن خلدون وفى دائرة المعارف للبستاني ومحاضرات الفلسفة العامة للكونت دى جلارزا وغير ذلك من المصادر والمطالان ونحن نقرر بأن هذا رأى هو أصح الآراء وأن الكلمة يونانية الأصل والمنبت معتمدين فى هذا على الأسباب التى تقدم ذكرها ، وقد ذهب هذا المذهب الاستاذ فون هامر فى دائرة المعارف الإسلامية . والاستاذ براون فى كتابه « تاريخ الفرس الأدبى » وليس هذان فقط بل وأوردها الأستاذ نيكلسون فى كتابه « مذكرات فى التصوف » وأخذ بها الأستاذ لطفى جمعه فى كتابه « تاريخ فلاسفة الإسلام » عند الكلام عن محيى الدين بن عربى فقال « عندنا ولو كره المكابرون أنها من كلمة « ثيوصوفيا » اليونانية كما تقدم ومعناها الحكمة الإلهية » وأخذ الاستاذ العقاد بهذا رأى أيضاً فى كتابه « مطالعات فى الكتب والحياة » وما تزال الكلمة معروفة بلفظها فى اللغات الفرنجية بلفظ (Theosophy)

فيظهر لنا من هذا كله أن الكلمة بعيدة عن العربية ودخيلة عليها من جهة أخرى . وقد يعترضنا معترض فيقول . ولكن الكلمة صوفى وليست سوفى . فنرد على هذا الاعتراض بأن حرف الصاد لا يوجد فى اليونانية أضف الى هذا أن الحرفين يتعادلان فى كثير من المواقع العربية

وقد ورد فى مفردات الراغب الأصفهاني قوله « سطر وصطر واحد » لا فرق بينهما هذا آخر ما وقفنا عليه وهو الحق على ما نعتقد والله الهادى الى سواء السبيل .
عبد العزيز مصطفى الاسلامبولى